٢٤٠

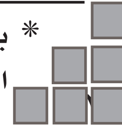
الشخصية الثقافية العربية والتحديات المفصلية الراهنة

د. أحمد غنام *

زادت بدايات القرن الحالي بأحداثها المختلفة المفصلية من حدة التحديات الخطيرة التي تواجه الثقافة العربية، باعتبارها ثقافة أصيلة، تضرب جذورها في أعماق التاريخ الحضاري الإنساني، ولعل أحداث ١١أيلول ٢٠٠١ في الولايات المتحدة الأمريكية، كانت أهم هذه التحديات نظراً لما رافقها من تحركات ونزعات إمبريالية -صهيونية تسلطية ضد الثقافات الأصيلة عامة، والثقافة العربية خاصة بأبعادها الفكرية والفلسفية والأدبية والحضارية والدينية،

* باحث وأديب سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.



وما أفرزته هذه الأحداث من وجود حالة عالمية ذات المفاهيم المغلوطة والأفكار المغرضة التي تستهدف -فيما تستهدف- العربي في وجوده ولقمة عيشه وأرضه وثرواته ومستقبله، فضلاً عن حضارته وثقافته وكرامته، بمعنى آخر: إنها تستهدف الشخصية الثقافية للعربي في حاضره وماضيه ومستقبله، والحقيقة أننا لم نعد نستغرب أن تسود الأوساط الثقافية العالمية مجموعة من المفاهيم الغامضة المغرضة من فئة «الحق الذي يراد به الباطل» التي راحت تشيعها الأدبيات السياسية والثقافية الأمريكية والصهيونية في المحافل والصالات الثقافية والحضارية العالمية، وذلك باعتماد هذه المفاهيم والترويج لها في الشبكات الإعلامية -الإمبراطوريات الإعلامية، إن صح التعبير- الواسعة الانتشار في العالم والتابعة للمؤسسات الإمبريالية والصهيونية بشكل مباشر وغير مباشر، ولعل من أبرز هذه المفاهيم والأفكار: «الحرب على الإرهاب» و«الحرب من أجل الديمقراطية وحقوق الإنسان» و «صراع الحضارات» و «صراع الثقافات».

وإن نظرة متأنية نسلطها على هذه المفاهيم والأفكار، من حيث مدلولاتها ومقاصدها وآليات استخدامها وغايات توظيفها، تدفعنا للقول: إن هذه المفاهيم وتلك الأفكار تأتي كمقدمة لحملة، منظمة داهمة تستهدف الشخصية الثقافية الحضارية العربية بمضامينها الفكرية والإنسانية والتاريخية ووصمها بمفردات «الإرهاب» و «التخلف» و«الجمود» لإظهارها أمام الموقف الثقافي العالمي، بمظهر الدموي المتعطش للقتل والتدمير وذلك فضلاً عن شن حملات التشويه والتزييف على التراث واللغة والحضارة العربية، وإشاعة عدم الثقة بذلك المعطى، وبقدرته على مواكبة العصر وإحداث النقلة العلمية والحضارية الضرورية، وتسريب الشعور بدونية تلك الثقافة ومقوماتها وحصيلتهما، وفي الوقت ذاته تعمل هذه المفاهيم وتلك الأفكار على إبراز الوجه الحضاري والإنساني للأمريكي والصهيوني وتلميعه من أجل أن يصبح «النموذج الذي يحتذى» على الساحة الثقافية والسياسية والحضارية العالمية.

هكذا ارتبطت الشخصية الثقافية العربية بمقولات «الإرهاب والتخلف والجمود والوحشية» في الوقت الذي ظهر



فيـه «الأمريكي» كالبطـل المنقـذ للبشرية من خلال ذكائـه وقدراتـه وانتصاراته وتسامحه وإنسـانيته، كمـا ظهر الصـهيوني بصورة المدافع – حتى الموت- ضد ثلة مـن المخربين الذيـن يريـدون قتله ورميه في البحر، ولن يجد المتتبع للشؤون والأحداث السياسـية والثقافية كبير عناء في الحصول على هذه الأفكار وجملة التصريحات الدالة عليها، والواقع أن الشخصية الثقافية العربيـة الأصـيلة، لم تعد فقـط مدعوة إلى التعبير عن حضورها وأصالتها في عالم متغير كثير الحركة والتعقيد وسط حملات التشويه والتزييف والاستهداف، وإنما أصبحت أيضاً مدعـوة إلى إثبـات جدارتها على المسـتوى الحضـاري المعاصر وفاعلية فلسـفتها أمام التراكـم الثقافي والإعلامـي العالمي وجدوى المنظور الثقافي والفكري العربي وسط التفجر المعلوماتـي الراهـن، وهذه كلهـا تحديات جوهرية تواجهها الشخصية الثقافية العربية في صراعها الحيوي حيال الوجود والمستقبل والآخر.

إن مسـألة الصـدام الفكـري والثقافي التي تفرضـها القـوى الإمبريالية الأمريكية والصهيونية ضد الشخصية الثقافية العربية باتت تأخذ في الآونة الأخيرة أشـكالاً متعددة ومنحـى واقعيـاً يعتمد الصراع الحضـاري بمفهومه السـلبي الهدام، وذلـك إدراكاً من هذه القـوى لأهميـة الشخصـية الثقافية العربية في نهضـة الأمـة وانبعاثها والحؤول دون إخضـاعها وكسر إرادة الحياة المتجددة

في نفوس أبنائها، فلقد أبدت الشخصية الثقافية العربية تماسكاً كبيراً وقوة تأثير ملحوظة النتائج في أثناء لقائها بالثقافات الأخرى، وصدمت بهجمات شرسة وخرجت منها سالمة، فهي تكون جوهر خصب وحيوية إبداع الأمة العربية، وقدرتها على التجدد والانبعاث واستنبات نهضات من نكسات عبر التاريخ، وبالتالي فإن هذه القوة تنظر إلى الشخصية العربية نظرتهم إلى خطر يدنو منهم، فيدفعهم الخوف والحق إلى غزوها في عقر دارها حتى تذل لتحقق من بعد ذلك عمليات النهب والتوسع والتسلط.

إذاً، تشكل الشخصية الثقافية العربية، وفق هذا التصور- العقبة الكبرى أمام غزو الأمة واستغلالها وتحقيق مصالح القوى الإمبريالية الأمريكية والصهيونية ومن الطبيعي -والحال هذه- أن تعمد هذه القوى إلى فرض الفلسفة الثقافية الأمريكية والصهيونية -ولو بقوة السلاح- على الشخصية الثقافية العربية، وذلك بعد ذر رمال الشك في مقوماتها، وفي الإيمان بجدواها في الحياة المعاصرة التي تشهد تطورات متسارعة في المجالات كلها، فالفلسفة الأمريكية والصهيونية بأبعادها الحضارية والثقافية والقيمية لا يجوز أن تبقى -كما يقول «بيل كريستول» المثقف الأمريكي والذي قدم نفسه على أنه مثقف القرن الواحد والعشرين والقنبلة الذرية الثقافية التي ستفجر العالم القديم لتحرره من الخرافات والأوهام- متداولة داخل الجسم الأمريكي ولابد من أن يتم تصديرها إلى العالم لتعمل كالجراثيم المعدية على النخر والإفساد، يقول مثقف القرن الحادي والعشرين الأمريكي «بيل كريستول» بهذا الصدد: «لا يجوز أن تبقى القيم الأمريكية متداولة داخل الجسم الأمريكي فقط، إذ لابد من تصديرها إلى العالم كله، فقد ننجح بعض الأحيان في تسريب قيمنا كالجراثيم المعدية، لكن لابد في معظم الأحيان من تغيير الأنظمة بالقوة، وينبغي ألا نخاف من التدخل، ولا أن نتردد، ولو اتهمنا بخرق الشرعيات الإقليمية والدولية».

وربما يكشف لنا هذا القول عن مسألة خطيرة في الأيديولوجية الإمبريالية الأمريكية، وتتمثل هذه المسألة في أن تكون السياسة، بأبعادها الدبلوماسية والعسكرية والاقتصادية، أداة طيعة في يد الأيديولوجية الثقافية والفكرية، بل أن تتحول هذه الأداة وسيلة قاهرة لتحقيق المشروع الفكري

والثقافي ضد الثقافات الأصيلة ولا سيما الشخصية الثقافية العربية، حيث تكون السياسة جاهزة لتغيير الأنظمة الأصيلة الممانعة في رأينا و«المارقة» -في رأيهم- التي تحول دون تسرب القيم الأمريكية كالجراثيم المعدية، وهذه الجراثيم لا تترك الجسد حتى تسلمه للهلاك، ذلك انطلاقاً من المفهوم الإمبريالي الراهن للإستراتيجية الناجحة، فالإستراتيجية الناجحة هي التي تعتمد على معطيات التطور العلمي والتكنولوجي والتقدم الفكري والثقافي والمعرفي في آن واحد لضمان السلطة الفكرية بالدرجة الأولى، ومن هنا ضرورة اللجوء إلى عمليات غسل الدماغ بشكل منهجي ومستمر على أن تكون القوة العسكرية جاهزة في الوقت المناسب.

وفق هذا التوجه يصبح العقل العربي بأبعاده الفكرية والثقافية والحضارية محط الهدف الإمبريالي الأمريكي، وتبديل المخزون الحضاري والفكري والثقافي الأصيل للشخصية العربية هو من أولويات المشروع الإمبريالي، وهذا إن تحقق -لا سمح الله- فإن الشخصية الثقافية العربية الأصيلة ستصبح من عالم النسيان ويصبح التبرؤ منها ومن أبعادها ومضامينها الحضارية والتاريخية أمراً لا مفر منه للدخول في حركة العصر الراهن والقادم، والحقيقة إن الشخصية الثقافية العربية لا تواجه تحديات المشروع الإمبريالي الأمريكي فقط، وإنما تواجه -من جانب واحد- المشروع الصهيوني الذي لطالما دفعت هذه الشخصية ثمن وجوده على أرضها دماء أبية من عروق خيرة أبنائها، كما دفعت ثمناً باهظ لقاء سياسته القائمة على تزييف الحقائق وتشويه الأحداث ونكران الحقوق والشرائع، غير أن الأخطر في أمر هذا المشروع أنه راح يزداد قوة وحدة في الآونة الأخيرة ليتخذ طابعاً خطيراً، مستفيداً في ذلك من جملة الظروف والتطورات والأحداث العالمية ولا سيما أحداث ١١من أيلول ٢٠٠١ وشيوع ما يعرف بـ «الحرب على الإرهاب».

إذ عمدت الأوساط الثقافية والإعلامية والسياسية الصهيونية إلى ربط مفهوم «الإرهاب» بالموروث الثقافي والحضاري والتاريخي للشخصية الثقافية العربية، حيث يتحول «الحرب على الإرهاب» إلى حرب ظالمة على الشخصية الثقافية العربية بكل أبعادها الفكرية والحضارية والتاريخية والإنسانية والتراثية، وبالتالي فإن القضاء على «الإرهاب» يتضمن القضاء على

معطيات هذه الشخصية وأبعادها المختلفة لتبقى الشخصية الثقافية العربية عارية من كل شيء على حد زعم ومطالبة «ميكي حايموفيتش» الشخصية الإعلامية البارزة في التلفزيون الصهيوني تقول «لا يمكن التخلص من الإرهاب الشرقي إلا بتدمير كامل للتاريخ! احرموا سكان هذا الجزء من العالم (الشرق الأوسط العربي) من تاريخهم الحضاري المتراكم، وحرروهم من تراثهم واتركوهم بلا ثياب داخلية في مطلع هذا القرن. «ولا غرابة أن تصاب «حايموفيتش» بنوبة من الضحك الهستيري الخبيث وهي تعلق على مشاهد الصواريخ الأمريكية التي تنهال على «بغداد» عاصمة الرشيد وذلك أثناء بث حي ومباشر للتلفزيون الصهيوني -بل ليس مستغرباً أن تتوجه هذه السيدة إلى المشاهدين قائلة: «ينبغي أن يبادر طيارو التحالف إلى قصف هذه الأماكن الأثرية من البر والبحر والجو، لأنها أخطر من أسلحة الدمار الشامل» وذلك في إشارة إلى مأساة سرقة متحف بغداد الكبير وتدميره تحت أنظار «المحررين» الأمريكان الذين فتحوا أبواب المتحف وقالوا للصوص «ادخلوا، خذوا ما تشاؤون، كل شيء لكم، لا تترددوا». ليظهر المتحف خاوياً مدمراً بعد أن كان يحافظ على كنوز خمسة آلاف سنة ويضم أغلى مجموعة من الآثار والوثائق والمخطوطات والتحف التي تلخص في مجملها إبداعات وعطاءات الحضارات الأصيلة المتعاقبة على هذه الأمة كالسومرية والبابلية والإسلامية والعربية، إن مجزرة المتحف وسقوط بغداد إنجاز قياسي ضد المشروع الثقافي العربي والشخصية الثقافية الأصيلة للأمة العربية -من منظور القوى الإمبريالية والصهيونية- وإنه ليحق للسيدة «حايموفيتش» أن تصاب بالجنون والنشوة لا فقط بنوبة من الضحك الهستيري الخبيث.

وعلى أي حال، فإن إجراء مقارنة موضوعية متأنية بين «المشروع الإمبريالي الأمريكي» و«المشروع الإمبريالي الصهيوني» ضد الشخصية الثقافية العربية والوجود العربي -بكل معطياته ومفرزاته- يمكننا من القول: ثمة علاقة تكامل متناغم بين هذين المشروعين، حيث يبدو أن أي خطوة نجاح يحققها أي مشروع منهما هي خطوة نجاح في طريق المشروع الثاني والعكس صحيح أيضاً، وهذا ما يمكن أن يقال عن خطوات الإخفاق أيضاً ذلك فضلاً عن تشابه «الخلفية الفكرية والأيديولوجية والثقافية» لكلا المشروعين

إلى درجة التوحد، فهما يصدران عن خلفية فكرية تحارب التاريخ والقيم والموروث بكل أبعاده وتنادي بما يسمى بـ «القطيعة الثقافية» مع التاريخ بكل معطياته الأخلاقية والفكرية والثقافية، إن هذه الخلفية طبيعي أن تواجه الشخصية الثقافية العربية القائمة أصلاً على تراكم تاريخي حضاري أصيل لثقافات حضارية متعددة متعاقبة تشكل القيم والأخلاق أساً أساسياً يوحد بينها جميعاً.

يقول الكاتب المسرحي الأمريكي «آرثر ميللر» منتقداً المجتمع الأمريكي المعاصر ومظهر الخلفية الفكرية والثقافية التي تحكمه: «إن أهم ميزة للمجتمع الأمريكي أنه مجتمع بلا تاريخ وأن مقياس الوجاهة فيه هو النجاح المادي، ولا قيمة للأصول والجذور، ومن هنا التهجم على العراقة الحضارية، أو على التراث المتوارث عبر الأجيال»، وكذلك محاربة الأصول والجذور والعراقة الحضارية مطلوبة في الكيان الصهيوني ذلك لأنه قائم على محاولة إبادة شعب أصلي بكل موروثه وثقافته وعاداته وتقاليده وقيمه أيضاً، وجلب مهاجرين من شتى أصقاع الأرض، ينتمون إلى ثقافيات مختلفة، غالباً ما تكون متناقضة، ولغات مختلفة، وأصول مختلفة

وكي يتفاعل هذا المهاجر في إطار المجتمع الجديد القائم أصلاً على إبادة شعب إنساني كامل، لابد من أن يحدث قطيعة مع ماضيه وموروثه الثقافي بكل أبعاده، وإلا كيف سيحصل التفاعل الحضاري المطلوب بين مهاجرين صهاينة أتوا من مشارب ثقافية مختلفة ومتناقضة، من شرق الأرض ومغربها، من مناطق الغنى الفاحش ومناطق الفقر المدقع، من بلدان التزمت والتطرف الديني، ومن بلدان الإلحاد، لتشكل مجتمعاً صهيونياً في فلسطين كيف سيتم ذلك ما لم يعمل كل مهاجر على قطع كل صلة تربطه بماضيه وتراثه حيث يتوافق الجميع في المحصلة؟.. إذ يتطلب الكيان الصهيوني أن يتبرأ كل مهاجر من تراثه وتاريخه وحضارته ليظهر الجميع سواسية: بلا تاريخ ولا حضارة ولا مثل حتى.

وبعد هذا وذاك، هل يحق لنا -نحن المثقفين العرب- أن نتساءل: لماذا تتعهد القوى الإمبريالية الأمريكية والصهيونية الشخصية الثقافية والحضارية العربية بالتحديات الخطيرة من كل حدب وصوب؟.. هل يحق لنا أن نستغرب لماذا تستهدف هذه القوى العقل العربي الأصيل -بكل مضامينه الأيديولوجية

والحضـــارية والتاريخية- بأشـــكال التشويه والتزييف وقلب الحقائق والمفاهيم، لا شـــك أن الإجابة واضـــحة، ويحســـن بنـــا هنا أن ندع «هنري كيســـنجر» يجيـــب إجابة تقطع الشـــك باليقين حين يقول: «مشـــكلة الشرق الأوسط أنه مكتظ بالتاريخ، وقد تركت عليه الحضـــارات الغابرة شظاياها، ومن هنا هذا الاحتشاد بالأثنيات والطوائف والانتماءات». ويقدم «كيســـنجر»الحل لهذه «المشكلة» برأيه فيقول: «ينبغي أن يتحرر هذا الجزء من العالم من أعبـــاء التاريخ التي تســـحقه وتمنعه من التطور». والحق إن «كيسنجر» سياسي مراوغ يريد أن يلغي كل حضـــارات المنطقة، ويغرس بدلاً عنها الأساطير والأوهام التلمودية ليأتي أنصاره -فيما بعد- ليدمروا كل أثر من آثار حضـــارات المنطقة، متذرعين بتحرير سكان المنطقة من ثقافتهم الحضـــارية الغابرة، وإلا تعذر عليهم التأقلم مع الحداثة.

